الأحد: 2024/11/24
الفوج 1 التوقيت: 16:30 – 18:00
الفوج 2 التوقيت: 14:50 – 16:20
الفوج 6 التوقيت: 13:10 – 14:40
الاثنين: 2024/11/25
الفوج 3 التوقيت: 13:10 – 14:40
الفوج 4 التوقيت: 14:50 – 16:20

الدرس رقم11:

أعلام الاستشراق (بلاشير)

نقلا عن: مقال ((كتاب "القرآن" للمستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير عرض وتقويم))، للمؤلف نبيل صابري

يُعَدّ المستشرق ريجيس بلاشير، من هؤلاء الذي أولى عناية كبيرة بالقرآن الكريم ولغته، وبذل وُسعه في ترجمته ومقاربة علومه، غير أن معرفة إنصافه من إجحافه؛ مرهون باستكشاف منهجه العلمي، ومدى التزامه بقواعد البحث.

وُلِد سنة 1900 في ضاحية مونتروج بجنوب العاصمة الفرنسية باريس، معروف باطلاعه العميق على اللغة العربية والأدب. حصل على دكتوراه الدولة من جامعة باريس برسالتين: الأولى عن: «شاعر عربي من القرن الرابع الهجري؛ أبو الطيب المتنبي»، والثانية: ترجمة فرنسية لكتاب «طبقات الأمم» لصاعد الأندلسي، مع تعليقات وفيرة مفيدة.

كان أستاذًا للغة العربية الفصحى في (المدرسة الوطنية للغات الشرقية) في باريس، وأشرف على مجلة (المعرفة) التي ظهرت في باريس باللغتين العربية والفرنسية، ومدير جمعية (استقبال طلاب الشرق الأوسط)، وكان عضوًا في مجلس إدارة الإرسالية العلمانية حتى عام 1956م، حيث كوّن حينها جمعية للنهوض بالدراسات الإسلامية، وكوّن سنة 1962 (معهد المعجمية العربية) وألْحَقَهُ بـ(المعهد الوطني للبحث العلمي CNRS)، وكان مستشارًا في لجنة المعهد الفرنسي للدراسات الأثرية في القاهرة، والمجلس العلمي للمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، وعضوًا في (أكاديمية العلوم)، وعضوًا شرفيًّا بـ(المجمع العلمي العربي في دمشق).

وقد تأثر به كثير من الدارسين في الغرب والشرق، وما زالت الدراسات حتى اليوم تحاول أن تصنّف مجهوداته وتحلل كتاباته، خاصة وله مواقف مناهضة للمحتلّ الغاصب، حيث وقف إلى جانب الدول المحتلّة وساندها في اختيار مصيرها واستقلال أراضيها. توفي سنة 1973، ومن أهم أعماله:

أ- تاريخ الأدب العربي: بحث فيه نشأة التدوين التاريخي في الإسلام حتى نهاية القرن الخامس عشر، توفي دون أن يتمّه؛ وقد ظهر منه ثلاثة أجزاء تنتهي عند 125هـ.

ب- ترجمة القرآن إلى اللغة الفرنسية مع مقدمة طويلة وتفسير قصير، وقد رتّب القرآن في هذه الترجمة وفقًا لما ظنه أنه ترتيب نزول السور والآيات، وفي طبعة أخرى عامة واسعة الانتشار 1957 عاد إلى الترتيب الأصلي الوارد في المصحف، والجزء الأول ظهر في 1949، والثاني 1950، في (1239) صفحة.

ج- معضلة محمد: ويلخص فيه أبحاث المستشرقين الذين كتبوا عن حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

د- نحو العربية الفصحى بالاشتراك مع (ماوريس ديمومبين).

هـ- قواعد في نشر النصوص العربية وترجمتها (بالتعاون مع جان سوفاجي).

لقد طرح المستشرق بلاشير في كتابه (القرآن) سبع قضايا كبرى في سبعة فصول متفرقة، مع مقدمة تمهيدية، وتفصيل مضامينها الكبرى كالآتي:

الفصل الأول: المصحف بنيته وتكوينه

الفصل الثاني: الرسالة القرآنية في مكة

الفصل الثالث: رسالة القرآن في المدينة

الفصل الرابع: الواقعة القرآنية وعلوم القرآن

الفصل الخامس: التفسير القرآني أصوله وأغراضه

الفصل السادس: القرآن والسُّنة مصدر العقيدة والشريعة في الإسلام

الفصل السابع: القرآن في الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي

إن أكثر ما قدّمه بلاشير من أطاريح وآراء قائم على منهج الشّك، وأسلوب الاحتمال لا يقوم على أحكام جازمة، فهو يحلّل من غير تثبت، ويستنتج بلا بيّنة، وكأنه يفكّك في قطعة تاريخية عريقة تنتمي لحضارة مندثرة قبل آلاف السنين، متذرّعًا في ذلك بكلمات: «أو»، «يبدو»، «ربّما»، «ويمكن أن» وغيرها من الأساليب الشّكيّة التخمينية، الدالة على التقدير والافتراض.

كما في كلامه عن أصل كلمة القرآن، حيث قال: «ففي بعض المقاطع القرآنية وردت كلمة قرآن بمعنى التلاوة، ويمكن أن تكون هذه الكلمة مأخوذة عن اللغة السريانية»، وكما قال عن نشأة التدوين:

«ويبدو أن فكرة تدوين مقاطع الوحي المهمة التي نزلت في السنوات السالفة على مواد خشنة من الجلود واللخاف لم تنشأ إلّا بعد إقامة محمد في المدينة، على أن هذه الحاجة إلى التدوين لم تظهر فيما يبدو إلّا بين الحين والآخر، وربما كانت تنشأ عن تحمس شخصي لبعض نصوص تشتمل على أدعية أو أحكام شرعية كانوا يرونها مهمة»، وغيرها من النصوص التي ملأ بها كتابه.

ومما يلاحظ عليه في حديثه عن المصحف، أنه يربطه بشخصية عثمان –رضي الله عنه–، فيعبّر عنه أحيانًا بمصحف عثمان، وأحيانًا بالمصحف القانوني، ما يثير الشكّ في نفس القارئ حتى يوهمه أنّه الواضع له، ويمهد الطريق أمامه لاعتناق فكرة بشرية القرآن، وكأنّ في الإسلام عدّة مصاحف مختلفة، وكل مصحف له آياته الخاصة به دون البقيّة، وهذا ما يضعف الثقة بالوحي الإلهي، ليحل محله الظنّ والوهم.

والعجب من هذا أن منهجية الشكّ قادته للتشكيك في المسلّمات والقواطع وإيرادها في قالب المختلف فيه، كقوله بعد إيراد آيات الخمر: «إن هذه النصوص كما نتبين قد أدت بالفقيه إلى إدخال قاعدة الناسخ والمنسوخ، يبقى بعد ذلك تحديد ما إذا كان المقصود بتحريم الخمر جزئيًّا أو مطلقًا، وهذا ما اختلفت عليه مدارس الفقه».

بل ذهب إلى أعمق من هذا في تشكيكه لكبرى العقديات الثابتة المعروفة عند الصغير قبل الكبير، والمقرّرة في أبسط الكتب الدينية المتداولة، وذلك مثل كلامه عن إبراهيم الخليل –عليه السلام–، حيث وسمه أكثر من مرة بأنه المؤسس لعبادة الكعبة، ولا ضير أن تلك الأفكار هي من قبيل الخيال العلمي المردود بالعقل، المقبوح بالطبع.

فهو أغفال المصادر والمراجع التي استقى منها أفكاره، بل هو الغالب على منهجه والمطرد في جميع فصوله بلا استثناء، وهذا الإبهام يحرم الباحثين من التأكد والاستبيان، حتى إن مترجم الكتاب اشتكى في المقدمة من عدم دقّة المؤلف في تحديد المراجع التي أخذ منها باعتبارها أكبر الصعوبات التي توقف عندها، لدرجة أنه يجمع في مقطع واحد كلمات متناثرة مأخوذة عن نص عربي طويل ويضعها بين مزدوجتين في سطرين أو ثلاثة أسطر.

ويلحق بالإغفال الانتقائية في استعمال المصادر الإسلامية، فتجده يركّز على بعض الكتب التاريخية أو الأدبية أو الفهارس في حين يهمل المصادر القرآنية المعتمدة، ولو اعتمدها فإنه ينقل منها تشويشًا لا تأسيسًا، يتماشى والطرح الذي يهدف للوصول إليه، كاعتماده على الفهرست لابن النديم، والمروج للمسعودي، وغيرها من الكتب التي تنقل الشواذ والأباطيل، وفي النص الآتي مثال يوضّح خلفية وبُعد النصوص المقتبسة؛ يقول في سياق الكلام عن الجمع القرآني: «وأكثر ما يمكننا هو الاستناد مع ضرورة الاحتراس القصوى، إلى تصريح شهير لصاحب الفهرست العراقي ابن النديم المتوفى بعد سنة 977م الذي يؤكد أنه

رأى في الكوفة مصحفين قديمين يحويان نصوصًا ظاهرة الاختلاف في تنظيمها، وعناوين فصولها، وعدد آياتها مع مصحف عثمان القانوني، هذه الشهادة قيّمة بالتأكيد...».

وقد وصل به الحدّ في الانتقائية إلى اعتماد كتب المستشرقين وأفكارهم، أمثال: لويس ماسينيون وماكدونالد وتيودر نولدكه، خاصة وهو شديد التأثر بالأخير في مجال ترتيب نزول القرآن، بل إنّ قدوته في تأليفه ترجع لأصداء عمله العظيم في (تاريخ القرآن) كما صرّح به في المقدمة.

وغير بعيد عن كلّ هذا تحريفه المتعمّد للمصادر، ولعلّ أهم مصدر طاله التحريف هو القرآن الكريم، فتارة يصف سورة الإخلاص بأنها ذات ست آيات، ومرّة يذكر أن بين آيتي 19 و25 من سورة النجم تردد في شجب عبادة ثلاث من ربات المكيين، وأخرى يدّعي فيها أن الفرق بين سورة الكهف والنجم هو اثنتان وعشرون سورة، وهاته مغالطات غير مقبولة في الدرس الأكاديمي، بل ومرفوضة عند جميع الطوائف على اختلاف توجهاتهم العلمية، فكيف سوّغ لنفسه بنقلها على أنها حقائق غير قابلة للنقاش؟!

فهو لم يكتفي بذلك بل يردّ القرآن لمصادر يهودية ونصرانية وسريانية وآرامية وغيرها ومن ثمّ يخليه من أصالته وإلهيته، شأنه في ذلك سالف الغربيين الدارسين لقضايا القرآن، خاصّة إذا وجد أدنى تشابه بينهما كما هو حاصل في القصص والألفاظ المعرّبة والأعلام، وهذه النزعة ظل يستحضرها في كل الفصول، مستصحبًا في ذلك تصوّره لأثر الحضارة اليونانية على النهضة الأوروبية الحديثة.

فتجده مثلًا في الأسطر الأولى من مطلع كتابه يقول: «ففي بعض المقاطع القرآنية وردت كلمة قرآن بمعنى التلاوة، ويمكن أن تكون هذه الكلمة مأخوذة عن اللغة السريانية التي يرِد فيها لفظ مشابه جدًّا هذا المعنى»، حيث يلقي بأول شبهة تأثيرية يصطاد بها أيّ متصفِّح لرسالته، والغريب أنّ صيغة كلامه يطالها الإمكان والاحتمال، ولكن لا يتورع من الإشارة إليها بتقصّد لا عرضًا ومصادفة.

ويقول أيضًا عن الترتيب الهبوطي في الطول للسور أنه «يبدو مطابقًا لبعض العادات الخاصة بالساميين»، ويدّعي أن سورة الفاتحة «تتخذ في العبادة دورًا مماثلًا لفاتحة [أبانا الذي في السماوات] في التعبّد المسيحي»، وأن النبيّ المبشّر في الصحراء يستند إلى «قصص قومية وإلى قصص مأخوذة من التوراة... والقرآن يتبع عن كثب الديباجة التوراتية عامة إلا أن اللغة العربية تضفي على الرواية ميزة غريبة بسياقها المكثف وباهتمامها بالإيحاء أكثر من اهتمامها بالوصف»، وهكذا يكيل التُّهَم من دون أيّ سند أو شاهد.

وليته توقف عند المصادر الدينية التي تحظى بالقداسة، ولكنه غاص في الطلاسم والسحر ليجعلها مادة مؤثرة وكائنة في التركيب القرآني المقلَّد، وأنقل هذا النص الذي يقول فيه: «وخارجًا عن بعض سور قصيرة جدًّا، هي في مجملها أدعية، لا بل أقوال في السحر»، فهل سورة الفلق التي عناها بالذكر هي أقوال

في السحر وليست أدعية، وبعد صفحات من هذا التقوّل رجع ليؤكد أن منزلات السور المكية «تمت بصلة إلى طرائق معروفة في الأوساط العربية منذ عهد قديم، إنّ استعمال القوافي المنظومة والمسجعة في هذا الأسلوب قد جعله ينتمي إلى أسلوب العرافة التي كان ينطق بها الكهان».

فهو كثيرا ما قلب الحقائق، وحرف المعاني التفسيرية بكل تعسّف، ومعلوم أنّ الحقد الدفين والشديد على الإسلام يُفقِد الموضوعية ويقود لالتماس أيّ دليل يُضعِف قوّته.

فنجده مثلًا يفسّر قوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}[المائدة: 82، 83]، بقوله: «إنّ الرهبان المسيحيين يستطيعون بإيمانهم وإحسانهم أن ينالوا ثواب الجنة»، وغيرها من القراءات التفسيرية البعيدة عن الاعتدال والوسطية.

كما أنه وصف النبي المرسل بعدة أوصاف تدلّ على التشويه والتمويه النابع من الانطباعات المسبّقة، فنعته بمؤسس الإسلام، وصاحب النساء والخليلات، ووسم رسالة الإسلام بأنها رسالة جهاد وتحريم أكثر من أية رسالة أخرى، ورمى الترتيب المصحفي للآيات والسور مرات عديدة بالاصطناع والتنافر والتضارب، زاعمًا أن القراءة التاريخية تعصم من الفوضى وتتخطى بالمطّلع القلق الذي ينتابه عند الاطلاع على نص يغلب عليه الغموض وتكثر فيه الألغاز.

ولتحقيق مقصده الأكبر من التحيّز والذاتية ظل منتقلًا من فكرة لفكرة دون أن يشبعها حقها، وكأنّ همّه حشد أكبر عدد ممكن من الأفكار التي تلتقي تحت سقف واحد فقط دون رابط يجمعها، متجاهلًا في كل ذلك الحقائق التاريخية، ومستخدمًا أيّة وسيلة تقرّبه من طموحاته الشخصية، ودوافعه الاستشراقية النابعة من منهج القرون الوسطى.

إن نتاجه لكتاب القرآن جاء في إطار إكمال حلقات سلسلته عن الإسلام، فسواء (معضلة محمد) أو (ترجمة القرآن) أو (المدخل إلى القرآن)، هي في الأخير تتوافق على تشويه المعالم الدينية وتسيء إليها ولكن في صورة جمالية تعاطفية لا يفهمها أغلب القارئين؛ إذ يمزج بين التقديس والتدنيس، والأمانة والخيانة، ليخرج المطالع بفكرة أحسنها الارتياب وعدم الاطمئنان إلى كلّ تراث إسلامي.

وتتمثل أهم عيوبه المنهجية التي أسس عليها كتابه (القرآن) في بث الشكوك، وإغفال المصادر وانتقائها وتحريفها، إضافة للنزعة التأثيرية وعدم التجرد للحق، والعجب أنه له جرأة كبيرة في اقتحام المشكلات التي أمسك عن التجاسر عليها علماء الأمة، مع ضعف رصيده اللغوي والثقافي والديني، وهذا يتنافى مع الشروط والأدوات التي ينبغي توفّرها لدى الباحث الذي يشتغل بالمجال القرآني.